الرحمة ودلالاتها

في أدب الصحابة

إعداد

د. محمد شمس عقاب

كلية الآداب– جامعة دمياط

مقدمة

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وأصحابه ومن اتبعه بإحسان إلى يوم الدين، أما بعد.

فإن للرحمة معنى في اللغة يدور على: الرقة، والتعطف، والمغفرة.

والمرحمة: لفظ مثل الرحمة. وقد رحمته وترحمت عليه. وتراحم القوم: رحم بعضهم بعضا. وترحمت عليه: أي: قلت: رحمة الله عليه. واسترحمته: سأله الرحمة. ورجل مرحوم، ومرحم، شدد للمبالغة[1].

والرحمة بهذه المعاني معنى إسلامي أصيل، ضارب بجذوره في مقاصد الشريعة الإسلامية، بل إن الشريعة الإسلامية لم تأت إلا لترحم الخلق جميعا: إنسهم وجنهم، شجرهم، وحجرهم، ودوابهم، وكل ما خلق الله عز وجل؛ ألم يقل الله جل وعلا مخاطبا نبيه صلى الله عليه وسلم: (وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ) [الأنبياء]، وهو خطاب بأسلوب القصر، أي: ليس لك يا رسول الله إلا أن تكون كذلك، وما أرسلناك إلا لذلك!

فالإسلام إذن دين الرحمة، وهي المبتغاة من الرسالة، وعليها يقوم أمر الدين كله، رحمة للعالمين في الدنيا، والآخرة. علم هذا من علم، وجهله من جهل.

وكان الصحابة– وهم أقرب الناس إلى رسول الرحمة، وأعلم الناس بأحواله وما يتنزل عليه– كانوا أفقه الناس بهذا المعنى الجليل، الذي من أجله بعث النبي صلى الله عليه وسلم، أخذوا هذا عن رسول الله

(1) انظر: لسان العرب، لابن منظور، محمد بن مكرم بن علي (رحم)، تحقيق: عبد الله علي الكبير وزميلية، دار المعارف بمصر.

صلى الله عليه وسلم،[1] فتعملوه، وعملوا به في حياته صلى الله عليه وسلم، وبعد مماته. نجد أثر هذا في سيرتهم، وما خلفوه وراءهم من القول والعمل.

ونحن نجد وصف حالهم مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، وحال رسول الله معهم فيما قصته هذه الآية العظيمة المبينة: (فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ) [آل عمران: 159] أي: أن رحمتك يا محمد بهؤلاء الخلق، إنما هي رزق وعطية لك من الله عز وجل!

وفي هذه الورقة سوف نقتصر على بحث ما أورثه لنا الصحابة في هذا المعنى شعرا ونثرا، وما يتبع ذلك من الدلالات محللين بعض النماذج التي تجلو النص، وتخرج ما فيه من الأسرار والإشارات والعاطفة؛ وما أكثر ذلك وأصدقه في أدب الصحابة رضي الله عنهم، وخاصة في موضوع كموضوع الرحمة!

(1) مما أثر عن النبي صلى الله عليه وسلم في (الرحمة) ما رواه أبو هريرة رضي الله عنهم قال: قال خليلي وصفيني صاحب هذه الحجرة صلى الله عليه وسلم: "ما نزعت الرحمة إلا من شقي" (رواه الحاكم في: المستدرك على الصحيحين 277/4، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1/ 1411هـ، وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه).

وعنه رضي الله عنه قال: قبل رسول الله صلى الله عليه وسلم الحسن بن علي وعنده الأقرع بن حابس التميمي جالسا، فقال الأقرع: إن لي عشرة من الولد ما قبلت منهم أحدا. فنظر إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم قال: "من لا يرحم لا يرحم" (صحيح البخاري رقم 5538، تحقيق: الدكتور مصطفى ديب البغا، دار ابن كثير بيروت، ط1407/3هـ).

القسم الأول

(الرحمة) في شعر الصحابة

الرحمة في شعر الصحابة قبل الإسلام:

لا نريد أن نجترئ فنقول: إن (الرحمة) كانت قليلة الذكر أو كثيرته في شعر الصحابة قبل الإسلام؛ ذلك أنه يعتري شعر القوم قبل الإسلام –وبعده أيضا– ما يعتريه من غبش في مسألة التوثيق والرواية، وليس هذا مجال القول في ذلك، فإنه لحديث ذو شجون. ولكننا نقول: إن معنى الرحمة فيما وجدناه مما صح ابتداء في شعر القوم بعد الإسلام أكثر منه قبله، بل إنه لا مجال للمقارنة بينهما في ذلك، فكفه الشعر في الإسلام طائشة بتلك المقارنة لا محالة. وسبب ذلك معروف، وهو أن الإسلام دين الرحمة، فمجيئه هو الذي أذاع هذا المعنى ونشره في الناس وعلى ألسنة الشعراء والأدباء بعد ذلك.

ولعلنا نذكر من هذا القليل الذي وردت فيه (الرحمة) قبل الإسلام قول كعب بن زهير رضي الله عنه.

لعمـــــرك لـــــولا رحمـــــة الله إنـــــني لأمطـــــو بجـــــد مـــــا يريـــــد ليرفعـــــا

فلـــو كنـــت حـــوتا ركـــض المـــاء فوقـــه ولـــو كنـــت يربوعـــا ســـرى ثم قصـــعا[1]

ونذكر منه قول الخنساء في رثاء أخيها صخر قبل الإسلام في مرثيتها التي مطلعها:

مـــا لـــذ المـــوت لا يـــزال مخيفـــا كـــل يـــوم ينـــال منـــا شـــريفا

قالت تمدحه وتدعو له بالرحمة وغيرها:

(1) شعر كعب بن زهير، إملاء أبي العباس الأحول ص179 (ملحق الفائت من شعره)، نسخه وعارضه وصححه عبد العزيز الميمني، راجعه وعارضه برواية السكرب محمد صالح إبراهيم فرحات، مطبعة دار الكتب والوثائق القومية 1435هـ).

عـــاش خمســـين حجـــة ينكـــر المنـــ ـــــكر فينـــــا ويبـــــذل المعروفـــــا

رحمـــــة الله والســـــلام عليـــــه وســـــقى قـــــبره الربيـــــع خريفـــــا

فتل هذه الأبيات من نحو قول كعب بن زهير والخنساء رضي الله عنهما، أقصى ما يمكننا إيجاده في شعر أولئك القوم من الصحابة قبل الإسلام. أما بعد الإسلام، فقد وجدنا لهم في أدبهم شعره ونثره؛ ذكر كثيرا للرحمة في مواضع شتى، نجملها فيما يأتي:

(الرحمة) في رثاء الرسول صلى الله عليه وسلم:

رثاء الرسول صلى الله عليه وسلم هو أكبر الأغراض الشعرية التي ورد فيها ذكر (الرحمة) عند الصحابة، لا يدانيه في ذلك غرض غيره. ولرثاء الصحابة رضي الله عنهم للنبي صلى الله عليه وسلم خصوصية منحصرة فيهم؛ إذ إنه هو الفن الذي لم يقل فيه أحد من الخلق سواهم رضي الله عنهم؛ ذلك أن ما ورد بعدهم من شعر في الحزن على النبي صلى الله عليه وسلم، أو ندبه، أو تأبينه، أو ما يشبه ذلك من المعاني؛ إنما هو داخل في باب (المدائح النبوية)، وهو ما استقر عليه مصطلح القوم[1].

وقد جاء ذكر الرحمة في رثاء النبي صلى الله عليه وسلم على ألوان وصور:

فتارة يصفون النبي صلى الله عليه وسلم نفسه بأنه هو الرحمة – وهو أكثر تلك الصور التي جاء فيها الوصف بالرحمة– كقول حسان بن ثابت رضي الله عنه في مرثية صحيحة له:

آليـــت حلفـــة بـــر غـــير ذي دخـــل مـــــني أليـــــة بـــــر غـــــير إفنـــــاد[2]

بالله مـــا حملـــت أنثـــى ولا وضـــعت مثـــل النـــبي رســـول الرحمـــة الهـــادي[1]

(1) انظر مثلا كتاب: المدائح النبوية في الأدب العربي للدكتور زكي مبارك (مكتبة مصطفى البابي الحلبي، القاهرة 1354هـ).

(2) الإفناد: التكذيب وتضعيف الرأي.

أو كأن حسان وهو يصف النبي صلى الله عليه وسلم بذلك ينبهنا على صفة ما جاء به النبي من الرسالة، فيقول: إنما هي رحمة كلها، ولم يكن محمد صلى الله عليه وسلم إلا رسولا بها.

ويرثيه مران بن عمير ذو مران[2] بقصيدة تقطر أسى، مطلعها[3]:

إن حـــزني علـــى الرســـول طويـــل ذان مـــــني علـــــى الرســـــول قليـــــل

قلـــت، والمـــوت يا إمـــام[4] كريـــه: ليتـــني مـــت يـــوم مـــات الرســـولَ!

يقول فيها وقد وصف النبي صلى الله عليه وسلم بالرحمة كذلك:

يا لهـــا رحمـــة أصـــيب بهـــا النـــا س تولـــت، وحـــان منهـــا الرحيـــل

جـــدعت قـــومي الأنـــوف وأجـــرت دمـــع عـــين، فللجفـــون همـــول

إنه هنا يقتفي كتاب الله عز وجل في قول الله تبارك وتعالى ذكره واصفا نبيه (وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ) [الأنبياء]، وقد استعمل صيغة التعجب في التعبير عما يجيش في غمرات نفسه، أي: أتعجب منها كيف أقبلت تلك الرحمة على الناس فأنجتهم من العذاب الأليم، ثم أتعجب كيف سيصبر الناس على رحيلها عنهم، وهو يتعجب أيضا من مثل هذه الرحمة المحمدية التي لم يشهد الخلق مثلها في سابق

---

(1) انظر: ديوان حسان بن ثابت 272/1 (تحقيق: الدكتور وليد عرفات، دار صادر 1974م، مصورة عن طبعة منشورات جب التذكارية 1971م).

(2) الهمداني، القيل ابن القيل، كاتب الرسول صلى الله عليه وسلم والده (انظر: مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة، جمعها محمد حميد الله ص 231) وقام هو في قومه في الردة يثبتهم على الإسلام، راثيا محمدا صلى الله عليه وسلم فاتبعوه وأطاعوا أمره (انظر: منح المدح أو شعراء الصحابة ممن مدح الرسول صلى الله عليه وسلم أو رثاه، لابن سيد الناس، محمد بن محمد بن عبد الله ص 159- 160 (تحقيق: عفت وصال حمزة، دار الفكرة، دمشق، ط1407/1هـ).

(3) الإكليل من أخبار اليمن وأنساب حمير، للحسن بن أحمد الهمداني 48/10- 49 (تحقيق: محب الدين الخطيب، الدار اليمنية، ط1407/1).

(4) يعني الإمام المهاجر بن أبي أمية المخزومي، كان أميرا عليهم مما يلي صنعاء، أمره الرسول صلى الله عليه وسلم (انظر: منح المدح ص10).

العهود والأزمان[1]. وفي مثل هذا العمل من أعمال التعجب يقول الزمخشري: "ومعنى التعجب تعظيم الأمر في قلوب السامعين؛ لأن التعجب لا يكون إلا من شيء خارج عن نظائره وأشكاله[2]، وكذلك كانت رحمة النبي صلى الله عليه وسلم بهؤلاء الخلائق.

أما صفية بنت عبد المطلب عمة النبي صلى الله عليه وسلم فإن لها قصب السبق والتقدم في وصف النبي بهذا الوصف، أنه الرحمة؛ في عدة من مراثيها المتواردات عقب وفاة الحبيب صلى الله عليه وسلم، منها مرثيتها لها بائية مطلعها[3]:

عين جودي بدمعة تسكاب للنبي المطهر الأواب

فقد قالت تعدد أخلاقه الحميدة فيها، التي منها الرحمة:

مشفق، ناصح، شفيق علينا رحمة من إلهنا الوهاب

ثم دعت له بـ(الرحمة) بعد هذا البيت في تناسب لفظي ومعنوي دال، فقالت:

رحمة الله والسلام عليه وجزاه المليك حسن الثواب

ومن تلك المراثي مرثيتها الدالية التي أولها[4]:

آب ليلى علي بالتسهاد وجفا الجنب غير وطء الوساد

فقد قالت فيها:

(1) انظر: المراثي النبوية في أشعار الصحابة: توثيق ودراسة، لمحمد شمس عقاب ص409 (مكتبة الإمام البخاري، القاهرة، ط1/1435هـ).

(2) الكشاف عن حقائق التنزيل، للزركشي، بدر الدين محمد بن عبد الله بن بهادر 523/4 (تحقيق: عبد الرازق المهدي، دار إحياء التراث العربي، بيروت).

(3) الطبقات الكبرى، لابن سعد، محمد بن منيع الزهري 286/2 (تحقيق: علي محمد عمر، مكتبة الخانجي بالقاهرة، ط1/ 1421هـ).

(4) المصدر السابق 286/2.

رحمـــــة كـــــان للبريـــــة طـــــرا فهـــــدى مـــــن أطاعـــــه للســـــداد

وفي دالية أخرى لها أولها[1]:

عـــين جـــودي بدمعـــة وســـهود وانـــدبي خـــير هالـــك مفقـــود[2]

قالت:

فلقـــد كـــان بالعبـــاد رؤوفـــا ولهـــم رحمـــة، وخـــير رشـــيد

وفي همزية منسوبة إلى أم أيمن– وقد صححت نسبتها إلى صفية رضي الله عنها– مطلعها[3]:

عـــين جـــودي؛ فـــإن بـــذلك للـــدم ـــــع شـــفاء، فـــأكثري ملبكـــاء[4]

قالت:

فلقـــد كـــان مـــا عملـــت وصـــولا ولقـــد جـــاء رحمـــة بالضـــياء

فالحكمة عند هذه الصحابية الجليلة من مجيئ النبي صلوات الله عليه بالوحي، أن يكون للخلق رحمة، كذا رأى الصحابة نبيهم صلى الله عليه وسلم.

ومن تلك الألوان أن يصفوا بعض آثار النبي صلى الله عليه وسلم فيهم بالرحمة، فهذا ذو الكلام الحميري– وهو من جيل الصحابة الذين عاصروا النبي صلى الله عليه وسلم[5]– قد وصف بقاء النبي صلى الله عليه وسلم بينهم بأنه كان (رحمة)، وهو لاشك يعني النبي صلى الله عليه وسلم نفسه وليس

(1)السهود: الأرق (اللسان: سهد).

(2)انظر: المراثي النبوية في أشعار الصحابة، لمحمد شمس عقاب ص 345.

(3) الطبقات الكبير 288/2، ومنح المدح ص 337.

(4) إسقاط نون "من" الجارة قبل لام التعريف ذائع في كلام العرب، كقول الشاعر:

لم يشـــــج قلـــــبي محلـــــوادث إلا صـــــاحبي المـــــتروك في تغلـــــم

(المفضليات: للمفضل بن محمد الضبي ص238 (تحقيق: أحمد محمد شاكر وعبد السلام محمد هارون، دار المعارف، ط6).

(5) انظر: منح المدح، لابن سيد الناس ص101.

يعني البقاء، من صفة الشيء ببعض آثاره مجازا؛ وذلك قوله في بكاء النبي صلى الله عليه وسلم والأسى على فراقه:

قد أتى حمير أمر شامل قاطع للظهر مزر بالأمل[1]

موت من كان بقاه رحمة كل شيء ما خلا هذا جلل[2]

فكأن موت النبي موت للرحمة، أو قل إن شئت: كأن موت سنة النبي وهديه موت لما جاء به من الهدي والرحمة. وقد استعمل ذو الكلام فن الطباق ليشير إلى هذا المعنى، فطابق بين لفظتي: الموت، والبقاء؛ ليلمع من طرف خفي إلى أن ملخص الرسالة وبقاءها بعد موت النبي إنما هو في الرحمة، وأن نفاذ هذه الرحمة موت وإفساد لما جاء به النبي صلى الله عليه وسلم.

(الرحمة) في مدح النبي صلى الله عليه وسلم:

لم يقتصر وصف النبي صلى الله عليه وسلم بصفة الرحمة على موته، بل إن الصحابة وصفوه صلى الله عليه وسلم بها مادحين إياه حال حياته، مثلما جاء في قول قيس بن طريف[3] يمدح النبي صلى الله عليه وسلم في يوم بدر ويذكر إجلاء بني النضير:

نبي تلاقيه من الله رحمة فلا تسألوه أمر غيب مرجم

(1) أمر شامل: عام (تاج العروس: شمل). مزر بالأمل: مقصر به محقرة، مهونه (اللسان: زرى).

(2) انظر: منح المدح، لابن سيد الناس ص101. وفي اللسان (جلل): الجلل: من الأضداد: القليل اليسير، ومنه قول امرئ القيس يرثي أباه:

بقتل بني أسد ربهم ألا كل شيء سواه جلل

(3) صحابي مدح النبي صلى الله عليه وسلم في يوم بدر (الإصابة في تمييز الصحابة، لابن حجر، أحمد بن علي العسقلاني 482/5، تحقيق: علي محمد البجاوي، دار الجيل، بيروت، ط1/ 1412هـ).

فقد كان في بدر لعمري عبرة لكم يا قريش، والقليب الململ[1]

والرحمة في هذين البيتين معنى مختلف، فهي التي تسعى إلى النبي صلى الله عليه وسلم لا هو الذي يسعى إليها، وهذا من جميل المجاز وصائبه، تشريفا لمقام النبي صلى الله عليه وسلم ومقدارة.

كما أنهم وصفوه بالرحمة بعد موته عليه السلام في مقام المدح، ولعل هذا كان متأخرا شيئا ما لقوم من أبناء الصحابة أو صغارهم ممن لم يشهدوا وفاة النبي صلى الله عليه وسلم، أو شهدوها وهم صغار، فلم يقولوا في رثائه؛ من مثل إياس ابن سلمة بن الأكوع، وهو رجل مختلف في صحبته[2]، ولكن لا شك أنه من جيل الصحابة الذين شهدوا آثار النبي صلى الله عليه وسلم، أو كانوا قريبي عهد بحياته، ولذلك لا نعجب أن نراه يقول في مدح النبي صلى الله عليه وسلم:

سمح الخليقة، ماجد، وكلامه حق، وفيه رحمة ونكال

أولاد قيلة حوله في غابة كالأسد ترفأ حولها الأشبال[3]

وكأنه قد شهد الرسول صلي الله عليه وسلم فوصفه بذلك الوصف ذي السمة التشبيهية.

(الرحمة) في رثاء غير النبي صلى الله عليه وسلم:

رثى الصحابة غير النبي صلى الله عليه وسلم، وذكروا في أشعارهم صفة الرحمة يدعون بها لموتاهم فمن الدعاء القديم بالرحمة للميت في الإسلام، قول حسان بن يرثي نافع بن بديل– في عهد النبي صلى

(1) المصدر السابق 482/5.

(2) قال ابن حجر: ذكره ابن عبد البر في الصحابة وقال: مدح النبي صلى الله عليه وسلم بشعر. وفيه نظر. قلت: إن كان هو الذي روي عنه أبو العميس فليست له صحبة، لأنه ولد في زمن عثمان، وإن كان لسلمة ابن يقال له إياس أيضا فهو محتمل. وقد سبق ابن عبد البر إلى ذلك المرزباني في معجمه، لكن لم يصرح بأن له صحبة.. (الإصابة 164/1).

(3) الإصابة 164/1.

الله عليه وسلم وحياته– وكان نافع قد أسلم قديما، ثم استشهد في بئر معونة رضي الله عنه الله[1]، قال حسان:

رحـــم الله نافـــع بـــن بـــديل رحمـــة المشـــتهي ثـــواب الجهـــاد

ثم يقول في هذا الرثاء معيدا ذكر الرحمة، مسندا إلى الفقيد صفتها، في مقام الثناء عليه والندب له:

والله ربي لا نفـــارق ماجـــدا عـــف الخليقـــة، ماجـــد الأجـــداد

متكرمـــا يـــدعو إلى رب العلـــى بـــدل النصـــيحة رافـــع الأعمـــاد

مثـــل الهـــلال مباركـــا، ذا رحمـــة سمـــح الخليقـــة، طيـــب الأعـــواد[2]

ومما نجده للصحابة من الدعاء بالرحمة في رثاء غير الرسول صلوات الله عليه، مما يروى من قول عاتكة بنت زيد بن عمرو بن نفيل رضي الله عنها ترثي زوجها عمر بن الخطاب رضي الله عنه:

مـــن لـــنفس عاداهـــا أحزانهـــا ولعـــين شـــفها طـــول الســـهد

جســـد لفـــف في أكفانـــه رحمـــة الله علـــى ذاك الجســـد[3]

(1) نافع بن بديل بن ورقاء الخزاعي، كان قديم الإسلام، واستشهد في عهد النبي صلى الله عليه وسلم، إذ بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم المنذر بن عمرو إلى أهل نجد في سبعين رجلا من خيار المسلمين منهم نافع بن بديل بن ورقاء الخزاعي فقتلوا، رضي الله عنهم (انظر الإصابة في تمييز الصحابة، لابن حجر،= أحمد بن علي العسقلاني 404/6 (تحقيق: علي محمد البجاوي، دار الجيل، بيروت، ط1/ 1412هـ). وقد نسب ابن حجر المرثية إلى عبد الله بن رواحة، وذكر نسبة السكري إياها إلى حسان بن ثابت في الديوان. وهي إلى ماء شعر ابن رواحة أدنى، والله أعلم.

(2) انظر: الإصابة 404/6.

(3) انظر: ديوان الحماسة ص318.

القسم الثاني

(الرحمة) في نثر الصحابة

(الرحمة) في خطابة الصحابة:

تنتشر (الرحمة) في مواضع مختلفة من خطب الصحابة، نرى ذلك واضحا في خطاباتهم السياسية، وفي خطب الجهاد والقتال والغزو– وهي من أكثر المواضع التي ذكرت فيها الرحمة؛ إيذانا أن الإسلام وإن أمر بالجهاد والقتال؛ فإن ذلك لتحقيق: الغاية منه، ألا وهي الرحمة بالخلق، وإنقاذهم مما فيه من ضلال قد يؤدي بهم إلى نار جهنم في الآخرة، وضيق الصدر والشقوة في الدنيا– ونراه أيضا في خطب المراثي النثرية، وليس غريبا أن يكون ذكرها كثيرا في مثل هذا النوع من الخطب، وفي خطب أخرى، كالخطب في العدل وأوقات المحن، وهذا بيان تلك المواضع.

(في الخطب السياسية)

لعل أشهر خطب الصحابة السياسية جمعاء خطبة أبي بكر رضي الله عنه في مستهل خلافته، وهي فاتحة الخطب السياسية في الإسلام بعد الرسول صلى الله عليه وسلم، وفيها وضع الصديق دستور الحكم الذي سوف يسير عليه، بأن طاعته واجبة مادامت منضوية تحت طاعة الله عز وجل، فإذا عصى الله أبو بكر فلا طاعة على المسلمين له، ثم إن ختمها بجملة نبوية شهيرة في الخطابة، هي قوله رضي الله عنه: "قوموا إلى صلاتكم يرحمكم الله"[1]. فجعل رحمة الله نهاية خطبته، وكان نظام الحكم، وسياسة

(1) تاريخ الرسل والملوك، للطبري، أبي جعفر محمد بن جرير بن يزيد 210/3 (تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، ط6)، والسيرة النبوية، لابن هشام، أبي محمد عبد الملك بن هشام ابن أيوب الحميري، المصري 661/2 (تحقيق: مصطفى السقا، وإبراهيم الإبياري، وعبد الحفيظ شلبي، مكتبة مصطفى البابي الحلبي، القاهرة، ط1375/1هـ).

الناس، وما يفرض عليهم من القيود والأحكام، إنما هو لرحمتهم من الله عز وجل، تلك الرحمة التي ما فتئ يتحدث عنها ويسعى إليها الصحابة.

أما عمر فإنه أورد (الرحمة) في موطن لطيف من خطبة له يذكر فيها ولايته، وأنه لا قوة له في هذا الأمر إلا بقوة الله عز وجل وحوله وطوله، فيقول: "يا أيها الناس، إني قد وليت عليكم، ولولا رجاء أن أكون خيركم لكم، وأقواكم عليكم، وأشدكم استضلاعا بما ينوب من مهم أموركم ما توليت ذلك منكم، ولكفى عمر مهما محزنا انتظار موافقة الحساب بأخذ حقوقكم كيف آخذها، ووضعها أين أضعها، وبالسير فيكم كيف أسير، فربي المستعان؛ فإن عمر أصبح لا يثق بقوة ولا حيلة إن لم يتداركه الله عز وجل برحمته وعونه وتأييده"[1]. فهذا هو معنى الاستخلاف في الأرض، وأن الحاكم المسلم الذي يريد أن يحكم بأمر الله في الأرض، لن يستطيع أن يحكم بذلك، إلا برحمة الله عز وجل له، وعونه وتأييده.

ومن معاني الرحمن في خطب الصحابة معنى لطيف جليل وقف عليه، بل استخرجه عمر بن الخطاب، بثاقب نظره، وصادق بصيرته، وهو معنى جاء في معرض خطبة شقق فيها القول في العدل، فذهب به كل مذهب، وأوغل في أغواره، وعقد بينه وبين المعاني الصلات، وصبر نفسه حتى جعل للعدل أمارات وتباشير، وجعل تباشيره (الرحمة)، فكان مما قاله: في تلك الخطبة العظيمة الجامعة: "... وإن للعدل أمارات وتباشير؛ فأما الأمارات: فالحياء، والسخاء، والهين، واللين، وأما التباشير: فالرحمة..." [2].

إنه معنى جديد كل الجدة، ومفاجئ كل المفاجأة، لقد توقعنا أن يحدثنا عمر عن أسباب العدل وشروطه وخصائصه، لكنه حدثنا عن أسراره وروحه ومقاصده، وهذا موضع امتياز غير غريب عن عمر.

(1) المصدر السابق 4/214- 215.

(2) المصدر السابق 3/485. والتعتعة: أن تقبل بالرجل وتدبر به، وتعنف عليه في ذلك (لسان العرب: تعع).

إن الرحمة في فهم الفاروق ليست إلا زادا لمن يروم العدل، بل العدل ليس إلا سبيلا ينبغي أن يفضي في خاتمته إلى الرحمة، فالرحمة أثر له، وثمرة من ثماره، ودليل عليه! وليست الرحمة سببا فاضلا لمن يروم القضاء بين العباد والعدل، بل هي أصل كل ذلك وعاقبته ونهايته، عرف ذلك من عرفه، وجهله من جهله. وليست الرحمة منة ولا تفضلا من الحاكم أو القاضي أو ولي الأمر، بل هي شيء استحبه الشارع له، وحثه عليه، إن هو أراد الخير لنفسه، ورام العدل حقا لا ادعاء.

(في خطب الجهاد والغزو)

وفي الجهاد في سبيل الله، يستعمل الصحابة الدعاء بالرحمة للمسلمين، وهم يندبونهم إلى النفير واللحاق بالجيش، كأنه لا يصلح في مثل هذا الموضع من مواضع البذل– بذل الأرواح– لا يصلح مغريا إلا رحمة الله عز وجل، وكفى بها مغريا! فعل هذا الصديق وهو يدعوهم إلى عون أبي عبيدة بالجابية لما بلغه قيام هرقل بأنطاكية يعد جيشه لحرب المسلمين: "فرأيت أن أمد إخوانكم المسلمين بجند منكم، يشدد الله بكم ظهورهم، ويكبت بهم عدوهم، ويلقي بهم الرعب في قلوبهم؛ فانتدبوا– رحمكم الله– مع هاشم بن عتبة بن أبي وقاص"[1].

وليس بعيدا عن هذا صنيع سليمان بن صرد وهو يدعو أصحابه لقتال من قتل الحسين بن علي، وأن يتوبوا من خذلانه، فإنه لا توبة لهم إلا أن يستقتلوا ويستبسلوا في قتال من قتلوه، فلم يكذب أن دعا لهم بالرحمة، إذ هي مني أمثال هؤلاء من النادمين، قال: "فعليكم– يرحمكم الله– في وجهكم هذا بطول الصلاة في جوف الليل، وبذكر الله كثيرا على كل حال..." [2].

(1) فتوح الشام، للأزدي، أبي إسماعيل محمد بن عبد الله البصري ص34 (تحقيق: عبد المنعم عبد الله عامر، مؤسسة سجل العرب، القاهرة 1970م).

(2) تاريخ الرسل والملوك 124/5.

ولما كانت رحمة الله تعالى هي أمنية المقاتلين في سبيله، استغلها معاذ ابن جبل وهو يبشر أصحابه بالنصر إذا هم صبروا لعدوهم، ولم يتنازعوا فيفشلوا؛ فناداهم في الموقف بقوله: "يا قراء القرآن، ومستحفظي الكتاب، وأنصار الهدى، وأولياء الحق؛ إن رحمة الله– والله– لا تنال، وجنته لا تدخل؛ لأماني..."، ثم قال: "أنتم إن شاء الله منصورون، فأطيعوا الله ورسوله، ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم، واصبروا إن الله مع الصابرين..." [1].

وفي معنى آخر من معاني القتال، معنى الثبات ومباشرة للخصم، خطب علي بن أبي طالب رضي الله عنه في المقاتلين معه، حاثا إياهم على أن لا يترك أحد منهم خصمه في القتال فينصرف إلى أخيه، فيجتمع على أخيه رجلان يقاتلانه، فيجلل بذلك عارا، فيقول: "أجزأ امرؤ وقذ[2] قرنه – رحمكم الله– وآسى أخاه بنفسه، ولم يكل قرنه إلى أخيه؛ فيكسب بذلك لائمة، ويأتي به دناءة..." [3]، وكأن الذي أدى حقه في القتال في تلك اللحظة الحاسمة، استحق رحمة الله عز وجل.

إن هذا الدعاء بالرحمة في هذا الموضع نوع من إغراء القلوب لكي تؤثر في موطن تضن فيه كل النفوس، وكيف لا تضن وهي الفداء إن بذلت! وكأن عليا– وهو القائد الخبير– قد علم أن مثل هذا النوع من الدعاء– لا سواه– يرقق القلوب، ويهيئها، فتسرع إلى الإجابة، أو يذكرها ويرغبها، فتتنبه إلى أن الغاية المرجوة إنما هي رحمة الله عز وجل.

(1) فتوح الشام، للأزدي، ص218– 219.

(2) وقذه يقذه وقذا: ضربه حتى استرخى وأشرف على الموت (لسان العرب: وقذ).

(3) تاريخ الرسل والملوك 16/5– 17.

على أن من خير مواطن ذكر الرحمة في الجهاد في سبيل الله موطنا نادرا، وهو موطن معذرة المنهزمين، وهو موطن أشد ما يحتاج المرء إلى الرحمة فيه، هذا ما فقهه عمر بن الخطاب– وما كان أفقه عمر بن الخطاب سياسة وعلما وحكما– يوم جاء خبر انهزام أبي عبيدة في وقعة القرقس[1].

ومن خبرها أن المسلمين نهوا أبا عبيد– وكان قائد الجيش– عن عبور النهر إلى الفرس، فلج أبو عبيد وترك الرأي، وقال: لا يكونون أجرأ على الموت منا، بل نعبر إليهم. فاقتتلوا يوما، حتى إذا أسرعت السيوف في أهل فارس وأصيب منهم ستة آلاف، ولم يبق ولم ينتظر إلا الهزيمة، خبط الفيل أبا عبيد وقام عليه، فجال المسلمون جولة، وركبهم أهل فارس، فبادر رجل من ثقيف إلى الجسر فقطعه، فانتهى الناس إليه والسيوف تأخذهم من خلفهم، فتهافتوا إلى الفرات، فأصابوا يومئذ من المسلمين أربعة آلاف؛ من بين غريق وقتيل، وهرب من الناس بشر كثير على وجوههم، وافتضحوا في أنفسهم، واستحيوا مما نزل بهم، وبلغ ذلك عمر عن بعض من أوى إلى المدينة فقال: "عباد الله! اللهم إن كل مسلم في حل مني، أنا فئة كل مسلم، يرحم الله أبا عبيد! لو كان عبر فاعتصم بالخيف، أو تحيز إلينا ولم يستقل؛ لكنا له فئة"[2]. إنها الرحمة لفظا ومعنى بجنود المسلمين؛ لفظا بالدعاء بالرحمة؛ ومعنى بتأويل صنيعهم بأنه تحيز إلى فئة، وهذا من غاية الفقه، ومن غاية الشفقة بالمسلمين من لدن عمر!.

(1) ويقال لها: القس قس الناطف، ويقال لها: الجسر، ويقال له: المروحة (انظر: المصدر السابق 454/3(.

(2) المصدر السابق 454/3– 455. وعمر يشير إلى قول الله جل وعلا: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ الْأَدْبَارَ (15) وَمَنْ يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَى فِئَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ) [الأنفال: 15–16].

وفي رواية الشعبي أن عمر لما أخبر بالخبر اشتد ذلك عليه ورحمهم وقال: "اللهم كل مسلم في حل مني، أنا فئة كل مسلم، من لقي العدو ففظع بشيء من أمره فأنا له فئة، يرحم الله أبا عبيد لو كان انحاز إلي لكنت له فئة!" [1].

إنه الحنان من لدن الخليفة على من ابتعثهم في الجهاد من الرعية، وهو في الغاية من حسن السياسة وتدبير الملك، وقد كانت غزوة أبي عبيد من طلائع ما أرسله عمر من الجيوش إلى تلك النواحي، فما كان ثمة مناص من رأب الصدع، وتسلية النفوس الكليمة، وبمثل هذا الخبر نشهد لأبي بكر بصدق حدسه، وصواب رأيه في أنه سوف يلين جانب عمر لعباد الله المؤمنين[2].

ومن لين عمر وحنانه على المسلمين في هذه الوقعة وقعة القرقس ما روي عن ابن إسحاق عن محمد بن عبد الرحمن بن الحصين وغيره أن معاذا القارئ أخا بني النجار كان ممن شهدها ففر يومئذ، فكان إذا قرأ هذه الآية: (وَمَنْ يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَى فِئَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ) [الأنفال] بكى، فيقول له عمر: لا تبك يا معاذ، أنا فئتك، وإنما انحزت إلي[3].

(في خطب المحنة)

(1) المصدر السابق 458/4. قال السرخسي شرحا لهذا الأثر: "ففي هذا بيان أنه لا بأس بالانهزام إذا أتى المسلمين من العدو ما لا يطيقهم. ولا بأس بالصبر بخلاف ما يقوله بعض الناس إنه إلقاء النفس في التهلكة.." (شرح السير الكبير لمحمد بن الحسن الشيباني، إملاء محمد بن أحمد السرخسي 125/1، تحقيق: الدكتور صلاح الدين المنجد، معهد المخطوطات العربية، مطبعة شركة الإعلانات الشرقية 1971م).

(2) انظر: مصنف ابن أبي شيبة الكتاب المصنف في الأحاديث والآثار، لابن أبي شيبة، أبي بكر عبد الله بن محمد بن إبراهيم العبسي، رقم 32676 (حققه وقدم نصوصه وخرج أحاديثه: محمد عوامة، دار قرطبة، بيروت، ط1427/1هـ).

(3) انظر: تاريخ الرسل والملوك 459/3.

مما أثر عن ذلك عند الصحابة خطابتهم في محنة طاعون عمواس، وكان من سبيل تصبير الناس على المصيبة إذ ذاك تذكيرهم– وقد اشتعل بهم الوجع، وكثر الهلكى– أن هذا البلاء إنما هو رحمة من الله عز وجل، وكأن الرحمة قد صارت العزاء لمن يواجه أشد البلايا، ونعم العزاء هي.

فعن شهر بن حوشب الأشعري، عن رابة– رجل من قومه، وكان قد خلف على أمه بعد أبيه، وكان شهد طاعون عمواس– قال: لما اشتعل الوجع قام أبو عبيدة في الناس خطيبا فقال: "أيها الناس، إن هذا الوجع رحمة بكم، ودعوة نبيكم محمد صلى الله عليه وسلم، وموت الصالحين قبلكم. وإن أبا عبيدة يسأل الله أن يقسم له منه حظه"[1]. فطعن فمات، واستخلف على الناس معاذ بن جبل.

فقام معاذ خطيبا بعده فقال: "أيها الناس، إن هذا الوجع رحمة بكم، ودعوة نبيكم، وموت الصالحين قبلكم. وإن معاذا يسأل الله أن يقسم لآل معاذ منه حظهم"[2].

(الرحمة) في المراثي النثرية:

تتصل الرحمة اتصالا وثيقا بالموت، فأول ما يدعو المسلم لأخيه المسلم إذا بلغه موته أنه يدعو له بالرحمة، ولذا ليس غريبا أن يذيع هذا المعنى في مراثي الصحابة النثرية. إن بعض هذه المراثي قد يدخل في باب الخطب إذا نحن أغضينا عن عنصر الجمهور فيه، ذلك أن كثيرا منها كان يقف الصحابي على قبر أخيه أو عليه أو على نعشه، ثم يرثيه بهذه الكلمات البليغات الكليمات، التي تفيض حسرة ولوعة وألما، وكانوا كثيرا ما يبدؤون تيك المراثي بلفظ (الرحمة)، كأنه لما كان خاتمة ما يرجوه المسلم من حياته، بشره صاحبه به فبدأ مرثيته به، فمن جليل ما يروى من ذلك وجميله– لما فيه من ذكر محاسن الميت الصحيحة، ومن التصبر على فراقه– مرثية الحسين بن علي أخاه الحسن بن علي رضي الله عنهم، وفيها

(1) تاريخ الرسل والملوك 61/4.

(2) المصدر السابق 62/4.

يعد مناقب أخيه، ويورد أخباره الجميلة: من نصرة الحق، والورع، والزهد في الدنيا، والعفاف، والحلم. وهو يفتتح هذه المرثية بالدعاء له بالرحمة على صيغة الخبر، وكأن الرحمة متحققة بدعاء النبي لهم آل البيت، فيقول في مطلع ندبه: "رحمك الله أبا محمد؛ إن كنت لتناصر الحق مظانه..." (1).

إن الراثي يفتتح رثاءه بأرجى ما يتمناه الإنسان له، بل بأرجى ما يتمناه الميت لنفسه، ألا وهو الرحمة.

كما أن هذه الطريقة من طلب الرحمة المعلل بذكر محاسن الميت، هذه الطريقة ذات أصل في الشريعة الإسلامية، فقد جاء في الحديث أن الناس شهداء الله في خلقه، فمن أثنوا عليه خيرا وجبت له الجنة. فكأن الصحابة أرادوا تحقيق: هذا المعنى في رثائهم إخوانهم؛ حيث يتقربون إلى الله عز وجل وهم يطلبون لهم الرحمة بأعمالهم الصالحة الجميلة السالفة لهم في الدنيا.

ومن هذا النوع من الافتتاح بالرحمة ثم ذكر مآثر الميت الصالحات، رثاء معاذ بن جبل أبا عبيدة بن الجراح رضي الله عنهما– وكان الطاعون قد أصاب أبا عبيدة بأرض الشام فقتله– فيصوغ معاذ رثاءه في كلمات كأنما صيغت من حبات نفسه: "رحمك الله يا أبا عبيدة؛ فوالله لأثنين عليك بما علمت، والله لا أقول باطلا يخاف أن يلحقني من الله مقته، كنت –والله– ما علمت من الذاكرين الله كثيرا، ومن الذين يمشون على الأرض هونا، وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما. ومن الذين يبيتون لربهم سجدا وقياما، ومن الذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما، وكنت –والله– ما علمت من المخبتين المتواضعين. ومن الذين يرحمون اليتيم والمسكين، ويبغضون الجفاة المتكبرين". قال الراوي: ولم

(1) تاريخ دمشق، لابن عساكر 296/13.

يكن أحد من الناس كان أشد جزعا على فقد أبي عبيدة وعلى موته، ولا أطول حزنا عليه من معاذ بن جبل[1].

لقد مدح معاذ أبا عبيدة برحمته لليتامى والمساكين، فكأنه استحق بذلك الدعاء له بالرحمة في الآخرة جزاء وفاقا. وهذا في الأدب من قبيل رد العجز على الصدر في مثل هذا النوع من المراثي النثرية.

وكان معاذ قد خطب خطبة قبلها عند موت أبي عبيدة دعا فيها إلى التوبة، ورد الديون، وإصلاح ذات البين، كأنه يقول لهم: لستم عن الموت بمأمن، فاستعدوا لهم، ثم قال يرثيه ويذكر محاسنه، ويطلب إليهم أن يدعوا له بالرحمة كذلك على العكس من الطريقة الأولى، إذ ذكر الأسباب أولا ثم ذكر المطلوب فقال: "وإنكم أيها المسلمون قد فجعتم برجل، والله ما أزعم أني رأيت منكم عبدا من عباد الله قط أقل غمرا، ولا أبرأ صدرا، ولا أبعد من الغائلة، ولا أنصح للعامة، ولا أشد عليهم تحننا وشفقة منه؛ فترحموا عليه، ثم أحضروا الصلاة عليه، غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر. والله لا يلي عليكم بعده مثله أبدا!" [2].

ثم طعن معاذ بعد وفاة أبي عبيدة في الطاعون نفسه طاعون عمواس فمات رحمه الله، فرثاه عمرو بن العاص رثاء قريبا من رثائه أبا عبيدة، ودعا له بالرحمة دعاء كدعائه له، من قبيل طلب الرحمة، ثم ذكر أسباب طلبها، قال: "رحمك الله يا معاذ؛ فقد كنت– ما علمناك– من نصحاء المسلمين، ومن خيارهم، وكنت مؤدبا للجاهل، وشديدا على الفاجر، رحيما بالمؤمنين. وأيم الله لا يستخلف من بعدك مثلك!"[3]. إنما يتضمن هذا الرثاء– علاوة على ما فيه من معاني الحزن على معاذ– مكافأة له، ومعرفة

(1) فتوح الشام، للأزدي ص268.

(2) فتوح الشام، للأزدي ص268.

(3) المصدر السابق ص272.

لما أسلفه من حسن رثائه أبا عبيدة وشهادته بالخير له. وكذا كان الصحابة رضي الله عنهم، يحب بعضهم بعضا، ويعرف أحدهم الفضل والسابقة لأخيه.

ومن نوع تقديم (الرحمة) أيضا ما روي أن علي بن أبي طالب رضي الله عنه وقف على قبر خباب بن الأرت رضي الله عنه، فدعا له بالرحمة مستشهدا بأعماله الصالحات، وحسن إسلامه، وصبره على البلاء، فقال: "رحم الله خبابا؛ لقد أسلم راغبا، وجاهدا طائعا، وعاش زاهدا، وابتلي في جسمه فصبر، ولن يضيع الله أجر من أحسن عملا"[1].

ومنه قول أسماء بنت أبي بكر وهي تدعو لولدها عبد الله بن الزبير رضي الله عنه وهو مصلوب: "اللهم ارحم ذلك السجود والنحيب، والظمأ في تلك الهواجر"[2]. تدعو له بصلاته وصيامه.

ثم إن لدينا من مراثي النساء مرثية بليغة طويلة إذا قيست بسواها من مراثي النساء النثرية[3]، هي مرثية عائشة لأبيها المشهور، وهي فيها تؤخر طلب الرحمة ضمن أشياء أخرى، بعد أن تسرد مآثر أبي بكر الصديق وشمائله، تقول فيها: "نضر الله وجهك يا أبت، وشكر لك صالح سعيك؛ فلقد كنت للدنيا مذلا، بإدبارك عنها، وللآخرة معزا؛ بإقبالك عليها.. فعليك السلام ورحمة الله، توديع غير قالية لحياتك، ولا زارية على القضاء فيك"[4].

(1)العقد الفريد، لابن عبد ربه، أحمد بن محمد بن عبد ربه الأندلسي 171/2 (تحقيق: محمد سعيد العريان، المكتبة التجارية الكبرى، القاهرة 1359هـ).

(2)تاريخ دمشق 235/28. تريد صاحب السجود والنحيب والظمأ، المسبب لها، فالعلاقة المسببية.

(3)انظر: البنية الفنية في نثر الصحابة: دراسة تحليلية، لمحمد شمس عقاب ص209– 210 (رسالة دكتوراه، كلية دار العلوم، جامعة القاهرة 2015م).

(4) العقد الفريد 173/3.

على أن من طرائق الرثاء الوارد فيه ذكر الرحمة، رثاء أحد الصحابة بعض جسده[1]، وهو معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه، ففي الخبر أنه لما سقطت ثنيتاه لف وجهه بعمامة، ثم خرج إلى الناس فقال: "لئن ابتليت لقد ابتلي الصالحون قبلي، وإني لأرجو أن أكون منهم. ولئن عوقبت لقد عوقب الخاطئون قبلي، وما آمن أن أكون منهم. ولئن سقط عضوان مني لما بقي أكثر. ولو أتى على نفسي لما كان لي عليه خيار تبارك وتعالى، فرحم الله عبدا دعا بالعافية"[2].

(الرحمة) في رسائل الصحابة:

(الكتب السياسية)

لعل أكثر ذكر (للرحمة) في كتاب سياسي ما ورد في كتاب عثمان بن عفان رضي الله عنه إلى أهل الموسم قبيل وفاته، فقد جاء ذكر الرحمة في آخر مقطع منه مرات أربع، ثلاث منها مرغبات راجيات، وموضع في صيغة السلام المعروفة عند المسلمين. وسبب هذا التكرار أنه جاء في سياق تبرئة ذي النورين نفسه مما نسب إليه مما لم يثبت عنه، ولجأه إلى الله عز وجل– وقد أحدقت به الفتنة– لا إلى غيره، وتوبته إليه فإن ربه هو الغفور الرحيم، وقد كتب: "... فإني لا أبرئ نفسي الأمارة بالسوء إلا ما رحم ربي، إن ربي غفور رحيم، وإن عاقبت أقواما فما ابتغى بذلك إلا الخير، وإني أتوب إلى الله عز وجل من كل عمل عملته، واستغفره؛ إنه لا يغفر الذنوب إلا هو، إن رحمة ربي وسعت كل شيء، إنه لا يقنط من رحمة الله إلا القوم الضالون، وإنه يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات ويعلم ما يفعلون. أنا

(1) سبق الشعراء الجاهليون إلى رثاء أنفسهم شعرا، كالمثقب العبدي (انظر: المفضليات، للمفضل بن محمد بن يعلي ص 149، تحقيق: أحمد محمد شاكر وعبد السلام هارون، دار المعارف بمصر، ط5).

(2) البيان والتبيين، للجاحظ أبي عثمان عمرو بن بحر 71/4 (بتحقيق: وشرح: عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي بالقاهرة، ط7/ 1418هـ).

أسأل الله عز وجل أن يغفر لي ولكم، وأن يؤلف قلوب هذه الأمة على الخير، ويكره إليها الفسق. والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته، أيها المؤمنون والمسلمون"[1].

كأن عثمان قد أحس دنو أجله، فلم يجد غير رحمة الله له مآلا، فسأل الله عز وجل إياه، دعاه به.

(كتب الجهاد)

يأتي ذكر الرحمة في كتب الجهاد عموما على سبيل الدعاء الاعتراضي، ذلك أن المجاهدين غايتهم الاستشهاد للفوز برضا الله تبارك وتعالى ونوال رحمته، ففي كتاب كتبه أبو عبيدة لخالد بن الوليد في حروب الشام دعا له في درجة فقال: "وأنت –رحمك الله– على حالك التي كنت بها: لا يعطى في أمرك، ولا يخالف رأيك"، ثم دعا له في آخره دعاء صريحا بقوله: "تمم الله ما بنا وبك من نعمة الإحسان، ورحمنا وإياك من عذاب النار، والسلام عليك ورحمة الله"[2].

ومما كتبه الصديق في الترغيب إلى الجهاد والدعوة إليه ذاكرا (الرحمة) في عرضه مرتين: "فثقفوا– عباد الله– بموعود الله، وأطيعوه فيما فرض عليكم، وارغبوا في الجهاد– رحمكم الله– وإن عظمت فيه المؤنة، وبعدت فيه المشقة... ألا وإني قد أمرت ابن الوليد بالمسير إلى العراق ليلحق بالمثنى بن حارثة... فسيروا معه –رحمكم الله– ولا تتناءوا عن المسير؛ فإنه سبيل يعظم الله فيه الأجر"[3].

---

(1) انظر الكتاب بطولة في: تاريخ الرسل والملوك 4/407– 411.

(2) فتوح الشام، للأزدي ص71–72.

(3) كتاب الردة مع نبذة من فتوح العراق وذكر المثنى بن حارثة الشيباني، للواقدي، محمد بن عمر بن واقد– كذا نسبه المحقق للواقدي، والصواب أنه لابن أعثم– ص218–219 (تحقيق: الدكتور يحيى الجبوري، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1/ 1410هـ).

صيغة (الرحمة):

إذا نظرنا في صياغة الجملة التي ترد فيها الرحمة وجدناها جملا إنشائية غالبا، أو جملا خبرية على معنى الإنشاء، وتكاد الجمل الدعائية أن تستولي على تلك الجمل الإنشائية الطلبية، من نحو هذه الأدعية: "رحم الله نافع بن بديل"(1). "رحم الله خبابا"(2)، "رحمك الله أبا محمد"(3)، "رحمك الله يا أبا عبيدة"(4)، "رحمك الله يا معاذ"(5). هذا في الرثاء، وجله بصيغة الماضي، وكأنهم لما عرفوا حسن أعمالهم في الدنيا، وعرفوا عميم فضل الله عز وجل؛ استيقنوا أن الله عز وجل– بواسع رحمته– راحمهم، فصاغوا أدعيتهم بصيغة الماضي، وكأن ذلك متحقق بمشيئة الله جل وعلا، أو هو متحقق في نفوسهم، أعني نفوس الداعين.

وقريب من هذا، بل أكد منه– من جهة التحقق– أن يأتي الدعاء في قالب المصدر، ذلك أن المصدر لا زمن فيه، فكأن المعنى لاشك في حدوثهن من مثل هذه الأدعية: "رحمة الله والسلام عليه"(6)، "فعليك السلام ورحمة الله"(7)، "رحمة الله على ذاك الجسد"(8).

أما في خطاب الأحياء فإن (الرحمة) تأتي بصيغة الماضي كما مر، والمضارع أيضا، وكأن الداعي بهذه الصيغة– أي المضارع– يريد أن الرحمة لما تزل تنزل عليكم، أو كذلك يرجو من دعائه لهم، كهذه

(1) من رثاء حسان له في: الإصابة 404/6.

(2) من كلام لعلي في: العقد الفريد 171/2.

(3) من رثاء الحسين لأخيه الحسن في: تاريخ دمشق 296/13.

(4) من رثاء معاذ له في: فتوح الشام، للأزدي ص268.

(5) من رثاء عمرو بن العاص له في: فتوح الشام، للأزدي ص272.

(6) من شعر صفية ترثي النبي صلى الله عليه وسلم في الطبقات الكبير 286/2.

(7) من خطبة عائشة ترثي أباها في: العقد الفريد 173/3.

(8) من رثاء عاتكة بنت زيد لعمر في: ديوان الحماسة ص318.

الجمل "قوموا إلى صلاتكم يرحمكم الله"[1]، "فعليكم- يرحمكم الله- في وجهكم هذا بطول الصلاة"[2]، "يرحم الله أبا عبيد"[3].

أما صيغة الأمر، وهي من الصيغ الطلبية، فلم يأت الدعاء بها إلا مرة واحدة هي: "اللهم ارحم ذلك السجود والنحيب، والظمأ في تلك الهواجر"[4]. وهذا من قبيل الأدب مع الله عز وجل – مع جواز استعمال الصيغة ومشروعيتها في الدعاء- ولكن هذا ما وجدناه من شأن الصحابة رضي الله عنهم في هذا الموضع.

هذا في الجمل الإنشائية، أما الجمل الخبرية فعامتها قريب من هذا من حيث اليقين والتحقق- وإن جاءت في صيغة الخبر- كالجمل التي أتت وفيها إخبار بالنبوة أو الرسالة، والصحابة أشد الناس تصديقا بذلك إذا خاطب بعضهم بعضا بها، فأثر الخطاب فيهم حينئذ أثر عاطفي لا يحتمل استدعاء للعقل للبحث في صحة الخبر من عدمها؛ إذ هو صحيح صادق عندهم لا مراء فيه، وذلك في نحو هذه الجمل: "مثل النبي رسول الرحمة الهادي[5]"، "رحمة كان للبرية طرا"[6]، "وفيه رحمة"[7]، "يا لها رحمة أصيب بها الناس تولت وحان منها الرحيل"[8]، "نبي تلاقيه من الله رحمة"[9].... إلى مثيل تلك الجمل.

(1) من خطبة لأبي بكر في "تاريخ الرسل والملوك 210/3.

(2) من خطبة سليمان بن صرد في: المصدر السابق 124/5.

(3) من دعاء عمر بن الخطاب له في: المصدر السابق 454/3- 455.

(4) من دعاء أسماء لابنها عبد الله بن الزبير في: تاريخ دمشق 235/28.

(5) لحسان: انظر: ديوانه 272/1.

(6) لصفية بنت عبد المطلب في: الطبقات الكبير 286.

(7) لإياس بن سلمة بن الأكوع في: الإصابة 164/1.

(8) لمران بن عمير في: الإكليل من أخبار اليمن، للهمداني48/10.

(9) لقيس بن طريف في: الإصابة 482/5.

أما ما سوى ذلك من الجمل الخبرية التي تنزل عما مضى درجة فقد يجنح الصحابة إلى توكيده بالمؤكدات اللفظية إن احتاجوا إلى ذلك، كهذا المعنى الذي أراد تقريره معاذ بن جبل: "إن رحمة الله– والله– لا تنال، وجنته لا تدخل؛ لأماني"[1]. ومع أنه معلوم صدقه فإنه قد أقسم عليه وصدر الجملة بـ(إن). وكهذا المعنى الذي قد تنكره النفوس في وقت المحنة، وهو قول أبي عبيدة وقد ضرب الناس الطاعون: "إن هذا الوجع رحمة بكم"[2]؛ فقد احتاج الصحابي إلى توكيده بالحرف المؤكد.

نخلص مما مضى أن جملة الرحمة حين كانت تخرج من ألسنة الصحابة أو تلقاها أسماعهم، لم تكن قلقة أو يعتريها شك، بل كانت تتلقاها القلوب مستعدة لصداها الذي وقع من الأذن الموقع الذي ابتغاه له المنشئ أو نحوا من ذلك، وقد سلك هذا المنشئ الصحابي مسالك مختلفة حتى يصل بمعنى (الرحمة) إلى مبتغاه، فصاغه في جمل مختلفة إنشاء وخبرا؛ غير أنه رام من كل ذلك التأثير في القلوب في مقامه الأول لا شك.

(1) فتوح الشام، للأزدي ص218-219.

(2) تاريخ الرسل والملوك 61/4، 62/4.

الخاتمة

أراد هذا البحث تتبع لفظة (الرحمة) في أدب الصحابة بلونيه: الشعر والنثر. وقد وقف البحث على معنى الرحمة في شعر الصحابة قبل الإسلام تمهيدا للنظر فيه في أدبهم بعد إسلامهم. ثم بدأ بالشعر، فوجد المعنى قد انتشر في شعرهم في رثاء الرسول صلى الله عليه وسلم، وفي رثاء غيره ممن قتل أو مات من الصحابة. ولا شك أن المعنى بعد الإسلام قد صار معنى ركينا من المعاني الإسلامية في الأدب ولاسيما في الشعر. أما في النثر، في الخطابة والرسائل والكتب، فقد صار ملازما لألسنة الصحابة وأقلامهم، على ما هو مبين في ما مضى من الورقات. ثم إن البحث وقف هنيهة مع صيغة الرحمة، فوجده يؤدي دلالات جديدة جدة الإسلام الذي أشرق في جزيرة العرب فأضاء الأرض فيما بعد، وهي صيغ إنشائية أو خبرية تؤدي معاني الإنشاد، الذي في الإنشاء من خطاب للقلوب والمشاعر أكبر منه خطابا للعقول.

فهرس المصادر والمراجع:

1. الإصابة في تمييز الصحابة، لابن حجر، أحمد بن علي العسقلاني (تحقيق: علي محمد البجاوي، دار الجيل، بيروت، ط1412/1هـ).
2. الإكليل من أخبار اليمن وأنساب حمير، للحسن بن أحمد الهمداني (تحقيق: محب الدين الخطيب، الدار اليمنية، ط1407/1هـ).
3. البنية الفنية في نثر الصحابة: دراسة تحليلية، لمحمد شمس عقاب (رسالة دكتوراه، كلية دار العلوم، جامعة القاهرة 2015م).
4. البيان والتبيين، للجاحظ أبي عثمان عمرو بن بحر (بتحقيق وشرح عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي بالقاهرة، ط7/ 1418هـ).
5. تاج العروس من جواهر القاموس، للسيد محمد مرتضى الزبيدي (مطبعة الحكومة بالكويت).
6. تاريخ الرسل والملوك، للطبري، أبي جعفر محمد بن جرير بن يزيد (تحقيق: محمد أبو الفضل إيراهيم، دار المعارف، ط6).
7. ديوان حسان بن ثابت (تحقيق: الدكتور وليد عرفات، دار صادر 1974م، مصورة عن طبعة منشورات جب التذكارية 1971م).
8. السيرة النبوية، لابن هشام، أبي محمد عبد الملك بن هشام بن أيوب الحميري، المصري (تحقيق: مصطفى السقا، وإبراهيم الإبياري، وعبد الحفيظ شلبي، مكتبة مصطفى البابي الحلبي، القاهرة، ط1، 1375هـ).

9. شرح السير الكبير لمحمد بن الحسن الشيباني، إملاء محمد بن أحمد السرخسي (تحقيق: الدكتور صلاح الدين المنجد، معهد المخطوطات العربية، مطبعة شركة الإعلانات الشرقية 1971م).

10. رثاء الذات في الشعر الجاهلي: دراسة أسلوبية (قسم اللغة العربية، كلية الآداب، جامعة القاهرة 2005م).

11. شعر كعب بن زهير، إملاء أبي العباس الأحول ص 179 (ملحق الفائت من شعره)، نسخه وعارضه وصححه عبد العزيز الميمني، راجعه وعارضه برواية السكرب: محمد صالح إبراهيم فرحات، مطبعة دار الكتب والوثائق القومية 1435هـ).

12. صحيح البخاري= الجامع الصحيح، للبخاري، أبي عبد الله محمد ابن إسماعيل الجعفي (تحقيق: الدكتور مصطفى ديب البغا، دار ابن كثير، بيروت، ط3/ 1407هـ).

13. الطبقات الكبير، لابن سعد، محمد بن منيع الزهري (تحقيق: علي محمد عمر، مكتبة الخانجي بالقاهرة، ط1 /1421هـ).

14. العقد الفريد، لابن عبد ربه، أحمد بن محمد بن عبد ربه الأندلسي (تحقيق: محمد سعيد العريان، المكتبة التجارية الكبرى، القاهرة 1359هـ).

15. فتوح الشام، للأزدي، أبي إسماعيل محمد بن عبد الله البصري (تحقيق: عبد المنعم عبد الله عامر، مؤسسة سجل العرب، القاهرة 1970م).

16. كتاب الردة مع نبذة من فتوح العراق وذكر المثنى بن حارثة الشيباني، للواقدي، محمد بن عمر بن واقد– كذا نسبة المحقق– (تحقيق: الدكتور يحيى الجبوري، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1/1410هـ).

17. الكتاب المصنف في الأحاديث والآثار، لابن أبي شيبة، أبي بكر عبد الله بن محمد بن إبراهيم العبسي (حققه وقدم نصوصه وخرج أحاديثه محمد عوامة، دار قرطبة، بيروت، ط1/1427هـ).

18. الكشاف عن حقائق التنزيل، للزركشي، بدر الدين محمد بن عبد الله ابن بهادر (تحقيق: عبد الرازق المهدي، دار إحياء التراث العربي، بيروت).

19. لسان العرب، لابن منظور، محمد بن مكرم بن علي (تحقيق: عبد الله علي الكبر وزميليه، دار المعارف بمصر).

20. مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة، جمعها محمد حميد الله (دار النفائس، بيروت، ط7/1422هـ).

21. المدائح النبوية في الأدب العربي، للدكتور زكي مبارك (مكتبة مصطفى البابي الحلبي، القاهرة 1354هـ).

22. المراثي النبوية في أشعار الصحابة، لمحمد شمس عقاب (مكتبة الإمام البخاري للنشر والتوزيع، القاهرة، ط1/1435هـ).

23. المستدرك على الصحيحين، للحاكم النيسابوري محمد بن عبد الله (تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1/1411هـ).

24. المفضليات، للمفضل بن محمد بن يعلي الضبي (تحقيق: أحمد محمد شاكر وعبد السلام محمد هارون، دار المعارف، ط6.

25. منح المدح، أو شعراء الصحابة ممن مدح الرسول صلى الله عليه وسلم أو رثاه لابن سيد الناس، محمد بن محمد بن عبد الله (تحقيق: عفت وصال حمزة، دار الفكر، دمشق، ط1/1407هـ).